الطب الفرعونى

دكتور
هاشم عبد الله عبده الهوارى
قسم طب المجتمع ـ كلية الطب ـ
جامعة أسيوط

لقد وقفت منذ أشهر قلائل اذ كنت أنصت فى خشوع الى عرض الصوت والضوء وقد مزق السكون الرهيب الذى التزمه أبو الهول قرونا طويلة ـ فوقفت أتساءل عما عسى يرويه شاهد التاريخ الأول عن الطب والأطباء اذا ما عدل يوما عن هذا الصمت المروع واستجاب الى فضولنا القلق .

لقد ظل علماء الغرب يقولون ان طب الفراعنة لم يكن سوى رقى وبخور مع بعض المعرفة للأعشاب والنباتات ، شأنه فى ذلك شأن طب القبائل البدائية الحالية ولقد كان هذا الرأى من السذاجة بمكان ، فكيف كانوا يعقلون أن العلماء شيدوا هرما يزن ستة مليون من الأطنان على شكل هندسى متكامل ولم يخطئوا فى توجيهه سوى فى خمس دقائق من الزاوية ، كيف كانوا يعقلون أن هؤلاء العلماء يخدعون بمثل تلك الخزعبلات .

ولنفرض جدلا أنهم خدعوا ، فهل خدع كذلك علماء الاغريق من أمثال أفلاطون وابقراط وبثاغوراس الذين لم يضنوا بسنوات ثمينة من شبابهم يدرسون فيها على كهنتهم دون أن يصلوا على قول مؤرخيهم الى تمام علمهم وكامل أسرارهم ؟ أكان الاغريق ـ وهم خالفوا المنطق ومبتدعو الفلسفة ـ يضيعون وقتهم فى مثل هذا السفه وذلك الاسراف ان لم يظفروا بعلوم تشفى غلتهم .

وما القول فى " قيروس " أمبراطور الفرس وغيره ممن لم يسلموا صحتهم الا لأطباء من المصريين ، وفى " دارا " الذى أرسل طبيبه المصرى " أدجاحورسنت " الى مصر ليعيد بناء مدرسة سايس التى هدمها قمبيز من قبل • أو فى الأمراء الأجانب الذين كانوا يفدون الى مصر ليعالجهم أطباؤها أمثال " نب آمون " الذى نرى صورته مرسومة على جدار قبره ، (أنظر شكل ١) ، وهو يقدم الدواء لأمير سورى يصحبه خدم محملون بالهدايا ، أو فى قول هوميروس فى الأوديسة : ان كل أهل مصر عالمون بفن العلاج فهم من سلالة " بيون " طبيب الآلهة • لقد ظلت شهرة الأطباء المصريين عظيمة حتى فى عهد الاغريق ، فاننا نرى " أناخارسيس " فى القرن السادس قبل الميلاد يعتب على مواطنيه الاغريق تفضيلهم الأطباء المصريين على أبناء أوطانهم •

لقد ظلت الفكرة البدائية شائعة بين المؤرخين حتى سنة ١٩٣٠م عندما ظهرت ترجمة قرطاسة أدوين سميث التى قال عنها مترجمها " برستد " انها لابد قد أحدثت ضجة بين علماء مصر فى هذا الوقت وأنا أقول انها أثارت دهشة أكبر بين علماء الآثار المصرية فى عصرنا هذا • ولقد بلغ اعجاب ناشرها بها حدّا جعله ينسبها الى أمحوتب نفسه اله الطب •

وقد تكون الفرصة سانحة لنقول كلمة عن اللفائف الهيروغليفية التى نسميها بالقراطيس الطبية •

ان دراسة الأساليب اللغوية التى كتبت بها تلك القراطيس ومقارنة بعضها بالبعض قد جعلتنا نؤمن بأنها كلها منقولة عن أصول أقدم منها وبأن المعلومات التى تحتويها مستقاة من موسوعات طبية ترجع الى أول الأسر ، وان كنا لا نعرف شيئا عن مكان نشأتها أو عن مؤلفيها •

ولنذكر من بين الأدلة على هذا القدم ــ ورود بعض العبارات

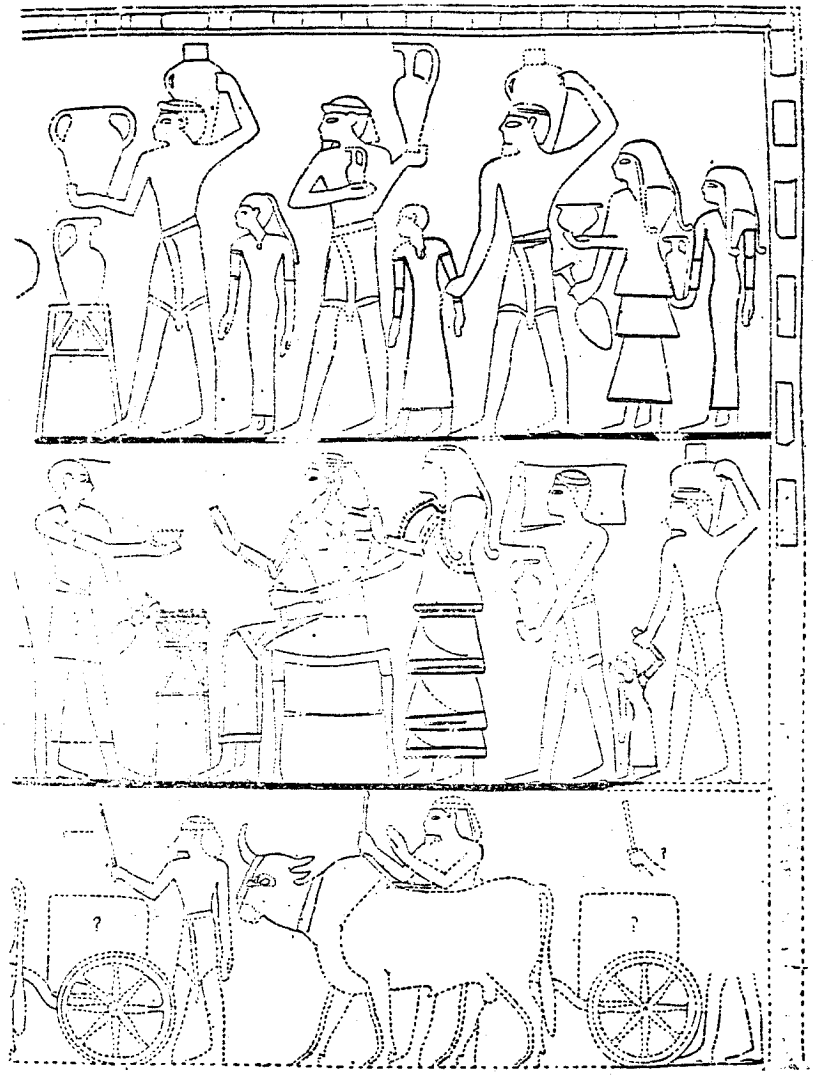

(شكل ١)

الطبيب المصرى نب آمون يقدم الدواء لأمير سورى يصحبه خدم محملون بالهدايا

مثل " هنا وجد تمزيق " أو " هنا لم توجد أية كتابة " أو تعليقات عن نتائج استعمال الوصفات المذكورة ، أو بعض الألفاظ العتيقة التى أصبحت مهجورة وقت النسخ فاقتضت تفسيرا لغويا ، وهذه العبارات كلها مكتوبة بالخط نفسه فى صلب النصوص نفسها ، كأن المتون والهوامش استنسخت من دون تمييز ٠

أما فيما يخص قرطاسة أدوين سميث التى ذكرناها فانها تحمل تاريخ ١٥٥٠ ق ٠ م ٠ ويرجح الأستاذ محمد كامل حسين أن يكون مؤلفها من معاصرى بناء الهرم الأكبر ، اذ كانت اصابات الرأس الناتجة عن سقوط من ارتفاع والتى تزخر بها تلك القرطاسة كثيرة الحدوث ٠

وقد حلل أستاذنا الجليل طريقة تفكير المؤلف ، ورأى أنه ليس من الكهنة السحرة ـ الذين ينصرفون بعد قراءة التعاويذ واطلاق البخور والاستنجاد بالآلهة ٠ لقد رأى فيه انسانا يدفعه ضميره الى ملازمة المرضى ليالى طويلة يترقب فى أثنائها علامات الابراء ، ثم يفكر فى كل ما لاحظه ولا يقصر فى تشريح الموتى لمعرفة سر الوفاء وبعد ذلك يملى ملاحظاته لى لغة بسيطة ليست من كلام المتفقهين ٠

يصف هذا المخطوط ثمانية وأربعين مشاهدة واقعية فى جراحة العظام والجراحة العامة تبدأ بالرأس وتهبط حتى العمود الفقرى ٠ وربما كان يشمل فى الأصل كل أجزاء الجسم ، اذ أن آخر مشاهدة فيه ـ وهى تتصل بالعمود الفقرى ـ تختم بعبارة ناقصة ٠

ومما يلفت النظر النظام الذى تتسم به طريقة العرض فى هذه القرطاسة فان كان مشاهدة تبدأ بالعنوان التالى : " تعليمات فى شأن (كذا) " ثم يجىء الفحص " اذا فحصت رجلا به (كذا) " ويتبعه التشخيص " قل فيما يخصه انه يشكو من ... " ثم يذكر النتيجة المتوقعة فيعبر عن ثلاثة احتمالات : " الشفاء الأكيد ، والمشكوك فيه ، والميئوس منه بالعبارات الثلاث التالية : " سأعالجه أو سأكافحه أو مرض لن

أعالجه " • وبعد ذلك يأتى العلاج ، وهو ينتهى بالتعليقات والتفسيرات •

وهذا النظام فى العرض والترتيب وفى التبويب ينمان على تقاليد طويلة وتفكير أصيل يسبقان الكتابة •

ويضاف الى تلك الصفات خلو القرطاسة من النظريات والسحر اللذين تزخر بهما المؤلفات الأخرى ، وربما كان هذا لأنها تتناول جروحا يسببها فعل خارجى معروف ، ولأنها لم تتعرض الى أمراض لها أسباب خفية يمكن ارجاعها الى الآلهة أو الى الأرواح •

وتتجلى واقعية هذه القرطاسة أيضا فى دقة الملاحظات التى تسردها ، فقد عرف مؤلفها العبقرى قيمة قرقرة العظام فى التمييز بين الكسر والجزع ، الذى عرّفه بأنه اصابة الأربطة دون تغيير فى وضع العظام وعرف صلة المخ بالحركة الارادية وتعيين ناحية الشلل بناحية المخ المصابة ، والصمم باصابة عظمة الصدغ ، وعرف قيمة جس جرح الرأس ، فشبه كسر الجمجمة بثقب فى اناء من الفخار • وعرف سوء مآل الحالات التى لا يشعر فيها بنبض فى المخ وتلك التى يحس فيها العظم منخفضا داخل المخ وتلك التى يلاحظ فيها تصلب الرقبة والنزف تحت الملتحمة ومن المنخرين أو من الأذن ... كما وصف كسر العمود الفقرى وما يتبعه من شلل رباعى وانتصاب واستمناء دون فقدان الوعى ، وخص الاستمناء بالكسور التى فى وسط الرقبة ليس غير • ومما يدل على اجراء المؤلف الصفة التشريحية لتلك الحالات أنه شبه الفقرة المنغرزة فى الفقرة التى تليها بالقدم التى تغوص فى أرض منزرعة •

وقد وصفت تلك القرطاسة رد الكسور والخلوع بمهارة فائقة ، فمن التعليمات الواردة بها ، فيما يخص علاج كسر الترقوة : " ألق المريض على ظهره ثم ضع بين اللوحين وسادة حتى يبتعد جزء ترقوته ويرجع العظم المكسور الى موضعه • وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان

على الجانب الأنسى من ذراعه • واضمده بالأمر وثم بالعسل فى الأيـــام التالية " •

ورأى الأستاذ كامل حسين فى تلك الطريقة : " أن الطـــب الحديث لم يجد أحسن منها وأنها ترقى الى درجة من الكمال فى الشقـاء لا داعى عمليا لتحقيقها " •

وفى القرطاسة نفسها ارشادات خاصة بخلع الفك الأسفـــل : " اذا تفحصت رجلا عنده خلع فى الفك والأسفل ولا يستطيع اقفاله فضـع ابهاميك على طرفى فرعى الفك داخل فمه وأصابع يديك تحت ذقنه ثـم عليك بعد ذلك رده الى الخلف فيعود الى مكانه " • وقد وصف أبقـراط تلك الطريقة بالألفاظ نفسها • ومثلت فى رسم ملون ضمن طبعة مـن كتاباته نشرت فى القرن السادس عشر • وقد اقتبس العرب أمثال عـلى ابن العباسى المجوسى وابن سينا هاتين الطريقتين وكأنهما عربوهمـا تعريبا •

أما كسر الأنف فانه كان يعالج بادخال لفائف صغيرة مـن الكتان داخل فتحتيه لحفظ شكله •

وفى اللفافة نفسها وصف لمرض قد يكون التتانوس ، وهـو مرض نسب أول وصف له لأبقراط • وهو يصف حالة كسر فى الجمجمة تبعه تقلص فى الرقبة وتعوج فى الفم ، وقال عنها أنه لا سبيل الى علاجها •

تلك هى قرطاسة أدوين سميث ، وهناك سبعة قراطيس أخرى، لن أذكر منها سوى اثنتين هما قرطاسة كاهون وقرطاسة أبرز •

أما الأولى فقد استكشفت فى مدينة اللاهون بالفيوم وأسماهـا مكتشفها قرطاسة كاهون مخطئا فى اسم البلدة ، وهى أقدم قرطاسة طبية معروفة • كما أن الأصل الذى نسخت منه أقدم من أصول القراطيـس الأخرى • وهى تصف سبعة عشر تشخيصا فى أمراض النساء وقدرا مماثـلا

من طرق التكهن بخصب النساء أو جنس الجنين • ولا أدرى هل مؤلفها فعل هذا عن قصد خفى ، ولكنه جمع فيها بين طب النساء والطب البيطرى •

أما قرطاسة أبرز فترجع الى عهد قرطاسة أدوين سميث ، وهى المرجع الأساسى لمعرفتنا الطب الباطنى • ولقد وصلتنا كاملة دون تشويه • وهى مجموعة صنفت من مؤلفات وصلت صفحاتها متناثرة الى بلبلة أجهدت الأخصائيين عندما حاولوا تفسيرها •

ومما يدل على نظرة قدماء المصريين فى المرض أن هذا المؤلف استهل على الوجه الآتى : " هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لأجزاء الجسم وأمراضه جميعا • ولدت فى هليوبولس مع كهنة حت ـ عات ، ولدت فى سايس مع الهات الأمومة ، ومنحنى سيد الكون كلمات استعين بها على طرد الأمراض وابعاد الآلام الوبيلة ... يا ازيس خلصينى من جميع المؤثرات الشريرة ومن الأمراض الشيطانية والملوثات التى رميت بها كما خلصت ابنك هوروس •

وتلك النظرة الشعبية الى المرض ، على انه من أفعال الأرواح ، نراها فى خطاب ظريف وجهه مريض الى زوجته المتوفاه، يلومها فيه على مرضه فيذكرها بما كانت حظيت به وهى فى كنفه من الرعاية والعناية ، وبأن تلك العناية لم تتأثر بازدياد ثروته واتساع سلطانه ، وهو يشير فى الخطاب الى ما أقامه لها من المآتم الفخمة اللائقة بها • ثم أن المرض كان يخصص فى كتابهم بالرمز الهيروغليفى للعدو وقد يكون هذا لأن المرض كان يحسب من عمل عدو أو لأن المرض ذاته كان يعد عدوا أو لتحويل المرض من المريض الى عدو ، وهذا يذكرنا بالعبارة المألوفة عندنا : عدوك عنده كذا ...

غير أن الصلوات والتوسلات فى بردية أبرز لا تتجاوز الاثنى عشر بين ٨٧٧ فقرة • ويمكن تقسيم الباقى الى فارما كوبيا شاملة

لأمراض البطن والجلد والعينين والجروح والحريق وأمراض الأطراف ، ثم الى كتابين فى القلب والأوعية يعدان أقدم مؤلفين يتناولان الحياة والمرض ووظائف الأعضاء بطريقة واقعية خالية من التأملات الفلسفية أو الروحية أو أساطير الآلهة ، وفى النهاية باب مطول عن الأورام .

وقد وردت فى تلك القرطاسة فقرات كثيرة جديرة بالاعجاب . فاليك وصفا ينطبق تماما على الذبحة الصدرية : " اذا تفحصت مريضا بالمعدة يشكو من آلام فى ذراعه وصدره وناحية من معدته ... قل بصدده الموت يهدده " .

ثم انه يضم مجموعة عجيبة من أوصاف الأورام ومن السمات الاكلينيكية التى تميز أنواعها المختلفة من أورام دهنية وفتق وتمدد شريانى وأكياس وخراريج ، وهى جديرة بمحاضرة كاملة . فقد أوصى مؤلف القرطاسة بجسها ، فاذا كانت متموجة أوجب حسبانها سائلة أو دهنية واذا كانت نابضة فهى أورام أوعية لا تعالج بالمشرط . واذا كانت تظهر من جدار البطن فوق العانة بعد السعال أمكن ارجاعها الى البطن بعد تدفئتها (الفتق) . ومنها ماهى ، على حد قوله ، أبشع وهى التى تظهر البثرات والتى ترتسم الرسوم على سطحها وتحدث آلاما شديدة فيقال عنها أنها أورام الاله خونسو ولا يفعل لها شىء ، أى أنها لا تشفى ، وهذا الوصف قد ينطبق على الجمرة أو على السرطان . ومنها أيضا الأورام التى تصحبها تشوهات وبقع ملونة على سائر الجسم وهى أيضا خارجة عن امكانيات العلاج ، والأغلب أنها تصف الجذام .

وقد نقش مجهول من أهل الفن ، فى بعض مقابر الأسرة السادسة بسقارة ، أوراما كثيرة ، وهى تمثل الفتق السرى (شكل ٢ ، ٣) والقيلة المائية (شكل ٤) وورما أو تضخما بالثدى (شكل ٥) ، ولا أدرى سبب عنايته برسمها بتلك الأمانة اللهم الا للمتعة التى يستشعرها أثناء الرسم .

ولعل المقام مناسب لذكر الجراحات التى كانوا يجرونها ،

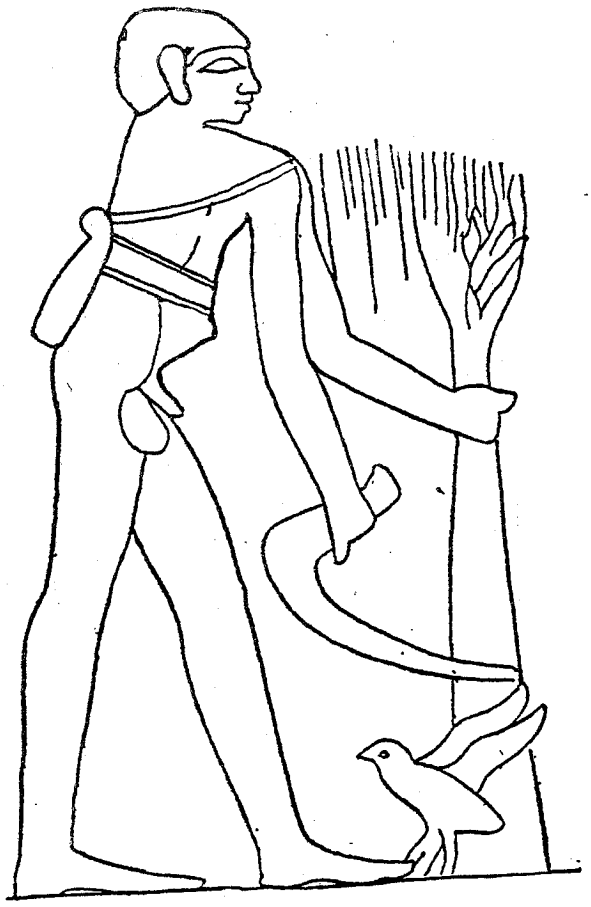

(شكل ٢)

" فتق سرى "

رسم من مقبرة (ميحو) بسقارة

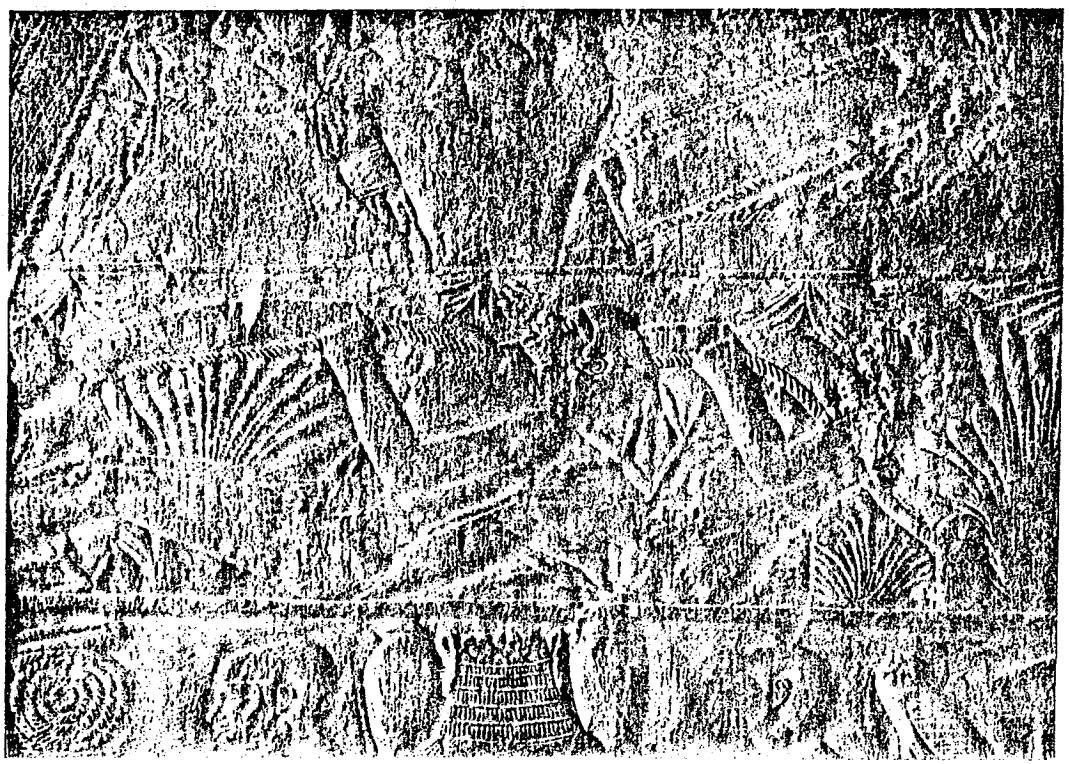

(شكل ٣)

الشخص الى اليمين مصاب بفتق سرى (مقبرة عنخ ـ نا ـ حور)

(شكل ٤)

فيلة مائية أ. فن اربى (سقارة)

(شكل ٥)

رسم يوضح حالة تضخم بالثدى

ويجدر بنا أولا أن نتساءل : هل عرفوا التخدير ؟ لقد عرف المصريون خواص نباتات مخدرة كثيرة مثل الأفيون والحشيش والسكران واللقاح ولعلهم استعملوها لتخدير المرضى قبل اجراء الجراحات وان لم يذكر شيء من هذا فى النصوص المعروفة . أما ما ذكر فانه يقتصر على نبذة فى وصف مترابو رحلته الى مصر التى يقول فيها : " أن المصريين يخلطون حجر منف بالخل ويضعونه على سطح الجلد لتخديره " . وقد فسر البعض هذا بأن الحجر يتفاعل مع الخل فيتصاعد ثانى أكسيد الكربون وهو غاز مخدر . الا أننى أجريت التجربة مستعملا الرخام والطباشير ولم ألحظ أى تخدير .

وهناك عبارة قبالة نقش الختان بسقارة تقول : " هذا ليجعله مقبولا " ولعلها تعنى وضع مرهم مخدر على العضو قبل الجراحة .

وقد مارس المصريون الختان منذ بدأ التاريخ ، وأخذها عنهم اليهود من بعدهم وكانت تجرى عادة للأولاد بين السادسة والثانية عشر . الا أنها لم تكن تفرض الا على الكهنة والأسرة المالكة وعلى من كانوا يقومون بطقوس دينية . وقد نقشت على نقشين أحدهما فى الكرنك والآخر فى سقارة (شكل ٦) . وهذا الأخير منقسم الى جزءين ، وتلاحظ فى الجزء الأول العبارة التى ذكرناها والتى تشير باجراء نوع من التخدير كما تلاحظ تسمية الختان بالكاهن المختن ، الأمر الذى يدل على أن العملية لها طابع دينى ولا تدخل ضمن اختصاصات الجراح العادى . وهذا قد يفسر عدم ورود أى نص فى شأن الختان فى القراطيس الطبية المعروفة فيما عدا نبذة وردت فى قرطاسة أبرس ترجمها (أبل) : " علاج لقلفة اذا تزفت " وارجاعها الى عملية ختان ، الا أن (جرابو) ترجمها على وجه مختلف : " شوكة سنط أحدثت نزيفا " وانما أذكر هذا الاختلاف لأبين الصعوبات التى يقابلها من يخوض بحر الطب العتيق .

ويروى سترابو أن هذه العادة كانت تمارس أيضا بالنسبة

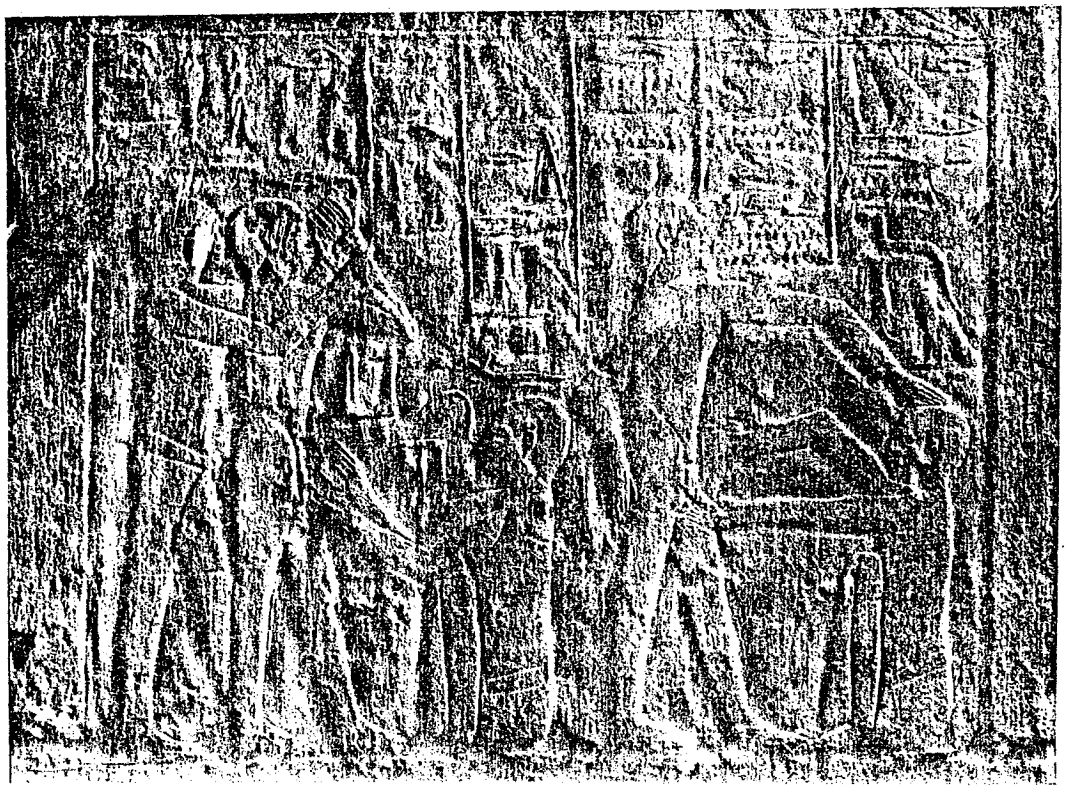

(شكل ٦)

عملية الختان (من نقوش سقارة)

للبنات ولكننا نرى أنه ينبغى التحفظ فى قبول تصريحات هذا المؤرخ ، اذ أنه ذكر فى الرواية نفسها أن اليهود اقتبسوا عادتى الختان للذكور والخفض للاناث من المصريين ، والمعروف أن اليهود لم يخفضوا بناتهم أبدا .

واذا لم يكن هناك مجال للشك فى تفسير هذين النقشين فان المقبرة نفسها تحوى نقشين آخرين يتركا ميدانا واسعا للخيال . يبين أحدهما أشخاصا يعنون بقدمى ويدى شخص آخر ممسكا ذراعه بيد منقبضة (شكل ٧) ، وقد رأى البعض فى هذا الرسم تمثيلا للتدليك والمانيكور والبديكور أى تقليم أظافر اليدين والقدمين . هذا بينما رأى البعض الآخر تمثيلا لعمليات جراحية .. وقد دونت فى أسفل اللوحة عبارتان الأولى : " انته وتركنى وشأنى " والأخرى " لا تسبب لى كل هذا الألم " .

أما النقش الآخر (شكل ٨) ، فانه يمثل سيدات يخرجن من باب عمارة ويتوجهن الى مكان لا يمكن بيانه لزوال الحجر التالى . وقد أغشى على بعضهن وخف بعض السيدات الى مساعدة هؤلاء على القيام من الأرض . ومما يلفت النظر ، استدارة بطون بعضهن وامتلاؤها . فقيل أن صاحب المقبرة كان طبيبا وأن هذه القاعة بما فيها من النقوش التى تمثل الختان وبعض العمليات على الأطراف وسيدات حوامل — كانت كأنها (عيادة خارجية) للطبيب . هذا مع أن ألقاب صاحب المقبرة لا تشير الى أى عمل طبى ، ونرى فى قاعة أخرى طبيبا من أتباعه اسمه " عنخ " يحمل لقب طبيب ، وأن المختن لم يكن يلقب بالطبيب بل كان يسمى الكاهن المختن .

وهناك نقوش كثيرة ترجع الى الأسرة الأولى والثانية . وهى متصلة بأعياد اليوبيل الملكى (حب سد) التى كان الغرض من طقوسها اعادة قوى الحياة الى الفرعون الكاهل وبالتالى الى الدولة بأجمعها .

وتمثل النقوش شخصا جالسا يصوب نحو رقبة شخص آخر آلة

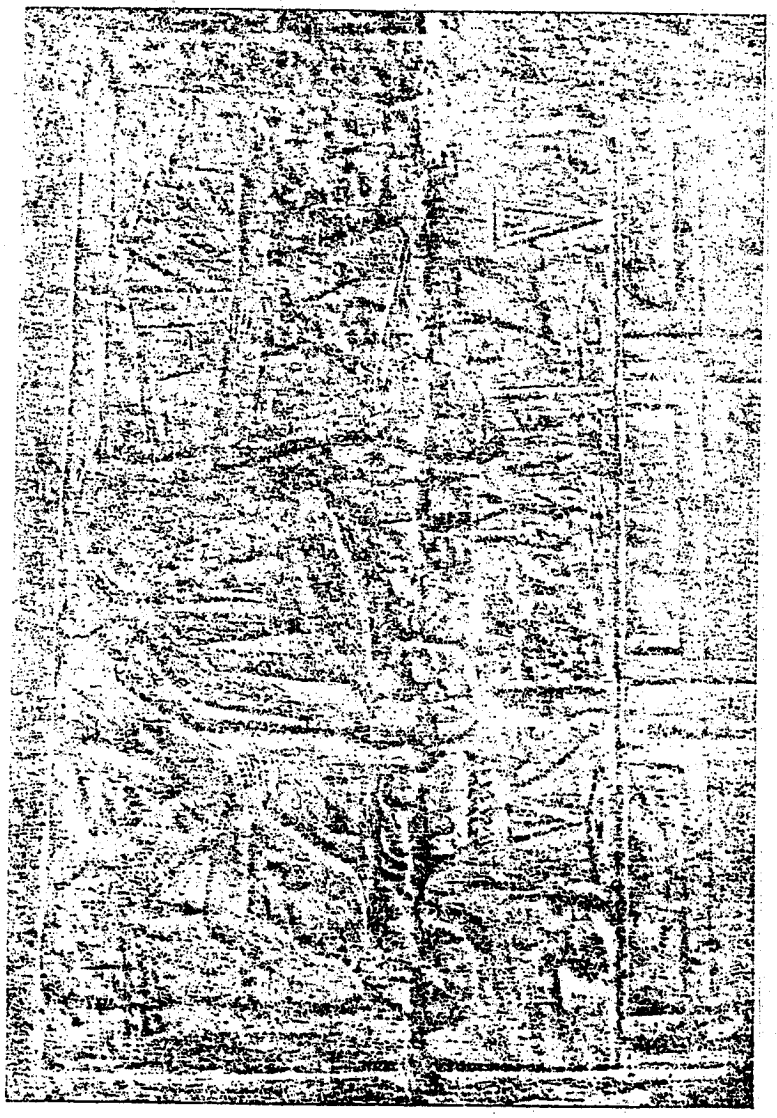

(شكل ٧)

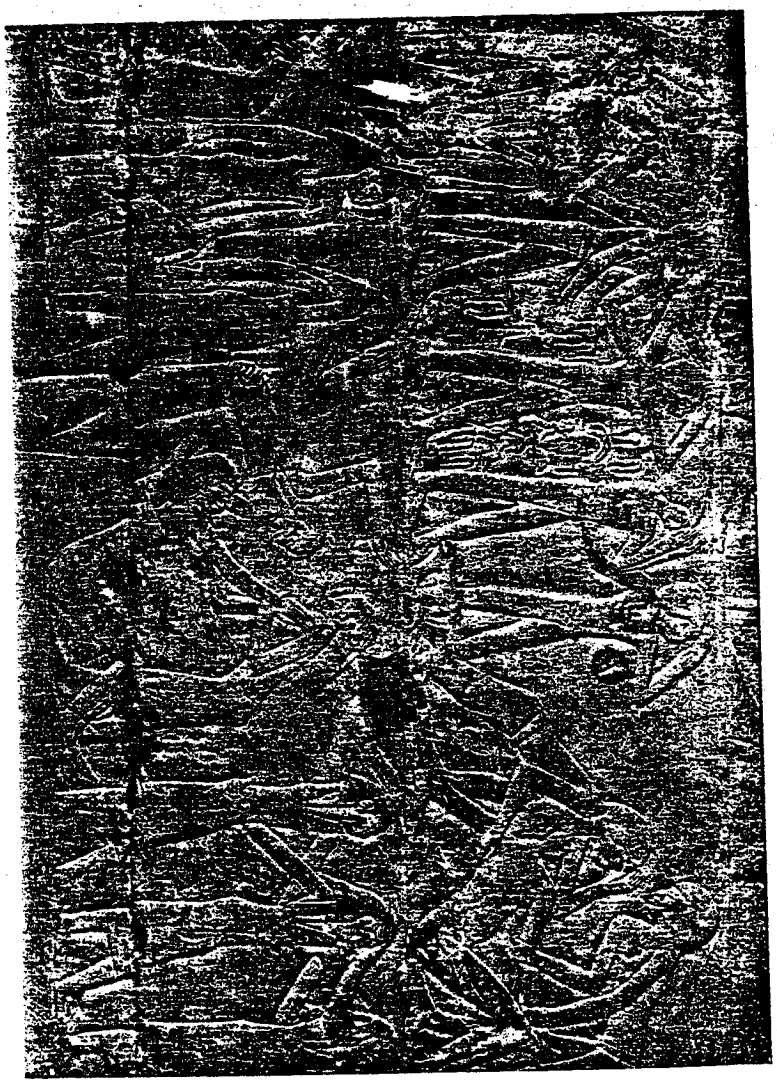

(شكل ٨)

رفيعة مستطيلة (شكل ٩) اما هذا الشخص الآخر فهو ساجد منحنى الى وراء وذراعاه مربوطتان الى خلف . وقد ذهب " بترى " وغيره الى أنها تمثل ذبح الأسرى أو القرابين البشرية فى حفلات " جناز " الملك . الا أن " فيكانتييف " نظر اليها نظرة أخرى فقال أن تلك النقوش - بما أنها متصلة بمراسيم الحد سد - تشبّه بمريض مختنق وتشبّه طقوس اليوبيل بعملية اعادة النفس بفتح القصبة الهوائية ، ففرض أن المصريين عرفوا فوائد عملية فتح القصبة الهوائية وكيف يجرونها ، وعد تلك النقوش ، مستندا الى براهين لغوية لا داعى لمناقشتها فى هذا المجال ، وعلى وجود زهرتى اللوتس والبردى اللتان ترمزان الى الجنوب والشمال - عدها كتابة تصويرية يمكن ترجمتها على الوجه الآتى : "يتقبل الشمال والجنوب هواء الروح " .

أما عملية التربنة فقد مارستها شعوب قديمة كثيرة لأغراض هى الى السحر أقرب منها الى الطب . وهى لم تذكر فى النصوص . الا أن متحف التشريح بكلية طب جامعة القاهرة يحوى جمجمة وقطعة من عظمة جمجمة أخرى فى كل منها ثقب مستدير ، حوافه ملساء تدل على حدوث تغيرات حيوية فيها قبل الوفاة . وقد تكون نتيجة عملية التربنة .

وكانت الخراريج تفتح بالمشارط ، اما الأكياس فكانوا يوصون بفتحها بمشرط معين ثم بتفريغ محتوياتها بمشرط من نوع آخر ، وأخيرا بازالة غلافها ازالة تامة بآلة من نوع ثالث لاجتناب تولدها من جديد ولنا أن نتعجب من الخبرة الفائقة التى أملت تلك الاجراءات .

أما الكسور والخلوع فقد رأينا كيف كانوا يردونها فى مهارة لا تقل عن مهارة أحسن مجبرينا اليوم ثم انهم كانوا يضعون الأطراف بعد ردها فى جبائر وهذا منذ قبل عهد الأسر أى منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة ق . م . وقد عثر على قدر كبير منها فى القبور . وكانت تتكون عادة من قطع من الخشب أو القشرة تتصل كل منها بالأخريات بواسطة أربطة وتبطن

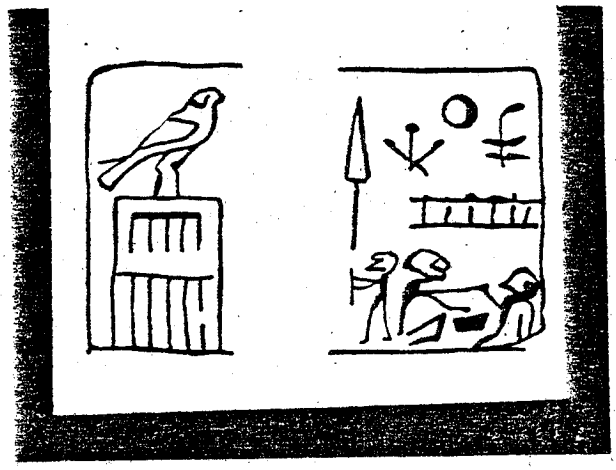

(شكل ٩)

نقوش من الأسرة الأولى والثانية رميما مثلث عملية
فتح القصبة الهوائية

بالكتان وتوضع حول العضو المجبر كالأسطوانة مع مراعاة وجوب تثبيتها للمفصلين أعلا وأسفل الكسر ٠

وقد وردت صورة فى احدى المقابر بمدينة طيبة تمثل شخصا يرد كتف أحد العمال المخلوع (شكل ١٠) وغيره يتأوه من مدق سقط على قدمه وثالثا ينتزع من عين آخر شظية غريبة ٠

ويوجد على جدار معبد كوم أمبو نقش يمثل آلات مختلفة (شكل ٢٢) قيل انها جراحية كما قيل ان السيدتين المرسومتين بجوارها تمثلان سيدتين حاملتين جالستين على كرسى الولادة ٠ الا أن التأمل فى هذا الشكل يبين أن تلك الآلات من ضخامة الحجم والغلظ مالا يتفق واستعمالها الطبى ، وان من بينها منشارا كبيرا لا محل له فى جراحتهم اذا أنهم لم يبتروا الأطراف ولم ينشروا العظام ٠ وميزانا ، مع أن المعروف أن المصريين لم يألفوا تقدير العقاقير بالميزان ، بل كانوا يقيسونها بالحجم ، وقرطاسة بردى ليست لها صفة طبية ، ومبخرة ، واناء يحتوى بخورا متصاعدا الى السماء ٠ وعين الاله حور (أو دجيت) ذات المعانى الدينية والسحرية والتى كانت تزدان بها التوابيت والمقابر والزوارق المقدسة ، وحتى تاكسيات القاهرة ، والتى نرى فرعون يقدمها الى الاله فى مواضع أخرى من المعبد نفسه ٠ أما ما ذهب البعض اليه من أن عين هورس هذه هى أصل حرف بداية كاملة (Recipe) التى نكتبها فى مقدمة وصفاتنا فهو تخريف صارخ ، اذ أن هذا الحرف لاتينى وليس بالاغريقى ولم تكن هناك أية صلة مباشرة بين الرومان والمصريين القدماء ٠

ولذا فانى أرجح أن هذا النقش يمثل الآلات التى استعملت فى بناء المعبد ، وقد قدمها بانى المعبد الأمبراطور تراجان الى الاله ، كما توضع النقود و (المسطارين) فى أيامنا هذه تحت حجر الأساس ، وكما كانت توضع فى ذلك الوقت اذ أن كل النقوش التى تمثل الآلهة وهى تشترك فى تشييد المعبد تجعل من تلك العملية عملية مقدسة وبالتالى

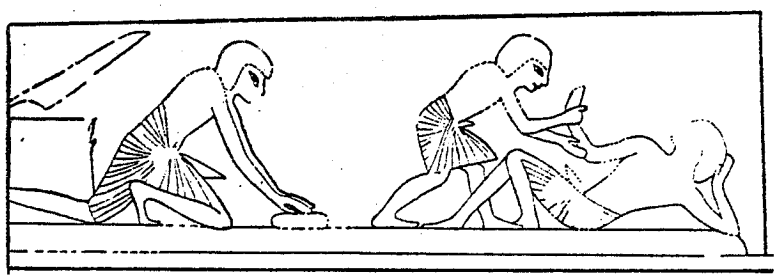

(شكل ١٠)

يوضح رد الذراع

المخلوع

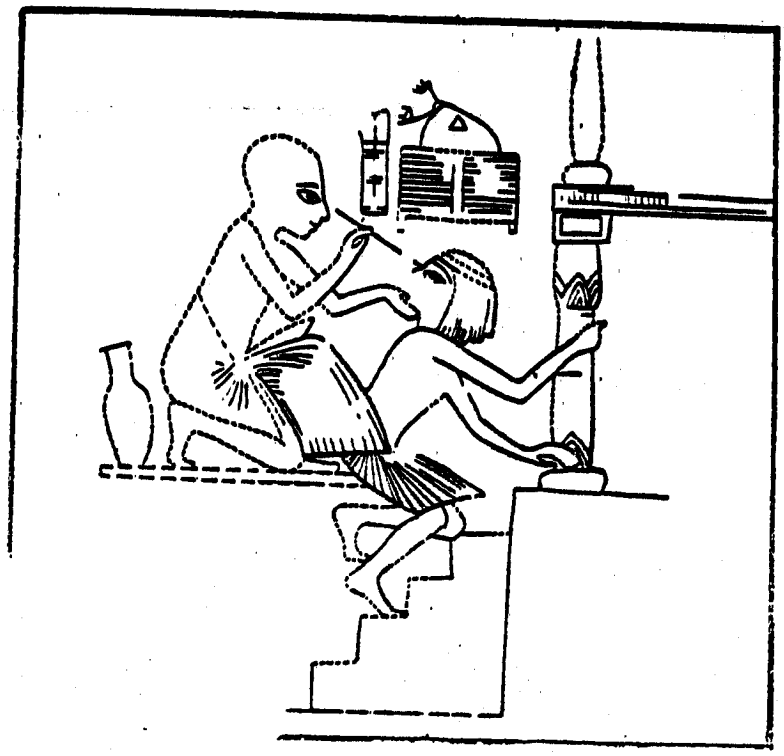

(شكل ١١)

ازالة جسم غريب

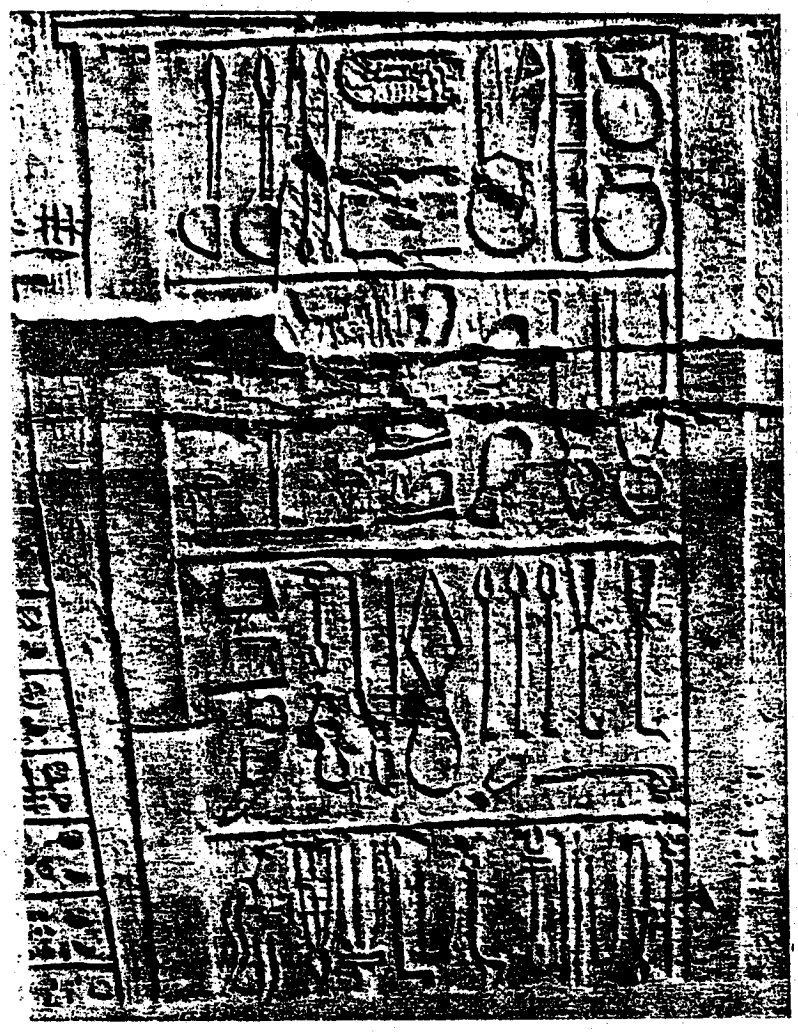

(شكل ١٢)

نقوش من معبد كوم امبو يرجع انها آلات
للمعمار

من الآلات والمعدات التى استعملت خلالها أدوات قدسها استعمالها فى تلك المراسيم فأصبحت جديرة بأن تسجل على الجدار ٠

اننا نرى على نقوش المعبد الأخرى الآلهة " سشت " آلهة فن العمارة ، (شكل ١٣) ، تدق الأوتاد حول حدود أرض المعبد وفرعون يصب الرمل فى خندق التأسيس ، (شكل ١٤) ، وفى محل آخر يطلق البخور حول محيطه ويرمى النطرون فى حصنه ، (شكل ١٥) ٠ أما السيدتان فانهما آلهتان كما يبدو من الرموز المنقوشة فوق رأسيهما وحسبما صورت الآلهات فى بقية المعبد ، وما كرسى الولادة المزعوم الا المائدة المألوفة فى رسومهم ٠

ومن الآلات الأخرى التى قيل عنها انها جراحية : مقص مزعوم ، (شكل ١٦) ، وهو موجود فى كل المتاحف وعندى أنه غير هذا ٠ فان نصفى تلك الآلة يتقابلان فى وسطهما دون أن يتقاطعا ٠ فان ضم طرفاهما من ناحية تباعد الطرفان الآخران بعكس المقصات ، ثم ان بأحد الأطراف تجويفا طويلا يستقبل الطرف الآخر الشبيه بالابرة ، الأمران اللذان يرجحان أن تلك الآلة كانت تستعمل لتجعيد الشعر على الطراز الذى كانوا مولعين به ٠

قد يقول قائل انى شغوف بالنقد الهدام لأنى أنفى ما أحسبه أساطير ولكنه ينبغى لنا عند الحكم على ما مر عليه ألوف السنين ألا تدع حماسنا نحو أسلافنا يسوقنا الى ما وراء حدود العقل ٠ لقد حقق أسلافنا ما يستاهل الاعجاب حقا ولا حاجة بهم الى التوافه والمفتعلات وحسبى فى ذلك أن أذكر أيضا بعض الطرائق التى وصلوا اليها فى جراحة الأسنان ، فقد أوصت قرطاسة أبرز بحشو الأسنان ، وكشف (اليوت سميث) عن فك أجرى فيه ثقب لتفريغ خراج ، ووجد (ينكر) فى مقبرة بالجيزة سنة قلقة مثبتة الى جارتها بسلك من الذهب ٠

ولنتحدث الآن عن علاجاتهم الباطنية .. لقد حتمت عليهم

(شكل ١٣)

الآلهة سشست آلهة فن العمارة

(نقوش من معبد كوم أمبو)

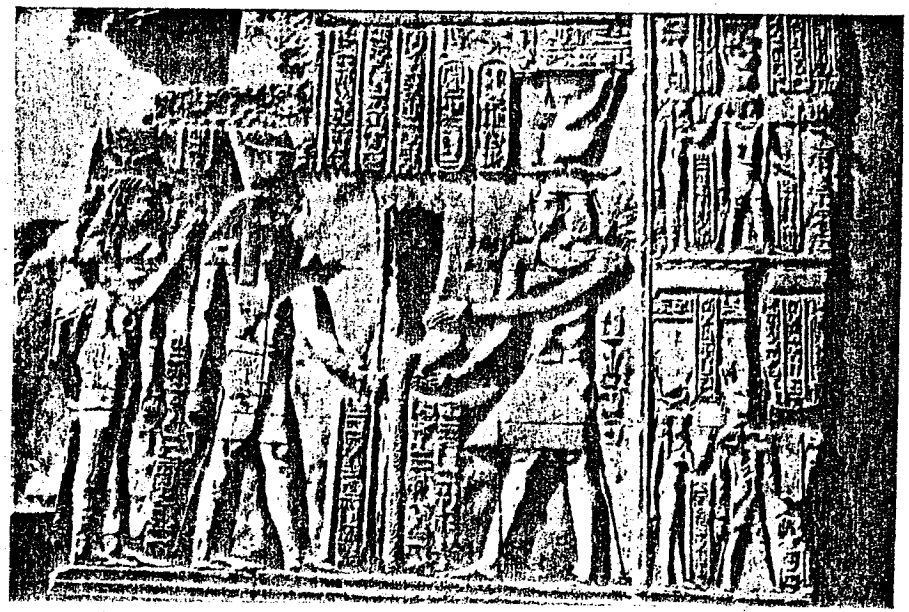

(شكل ١٤)

فرعون يصب الرمل فى خندق التأسيس (نقوش من معبد كوم امبو)

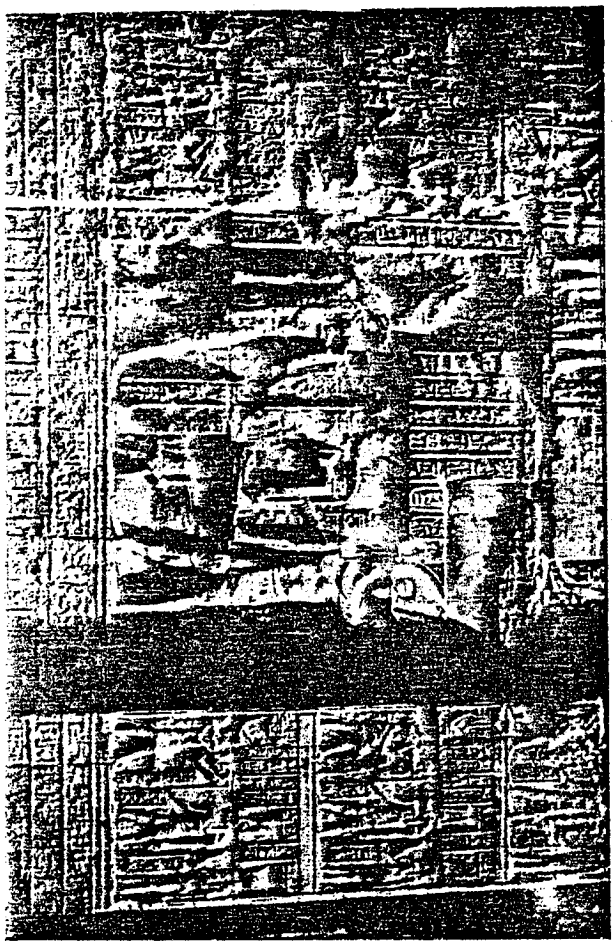

(شكل ١٥)

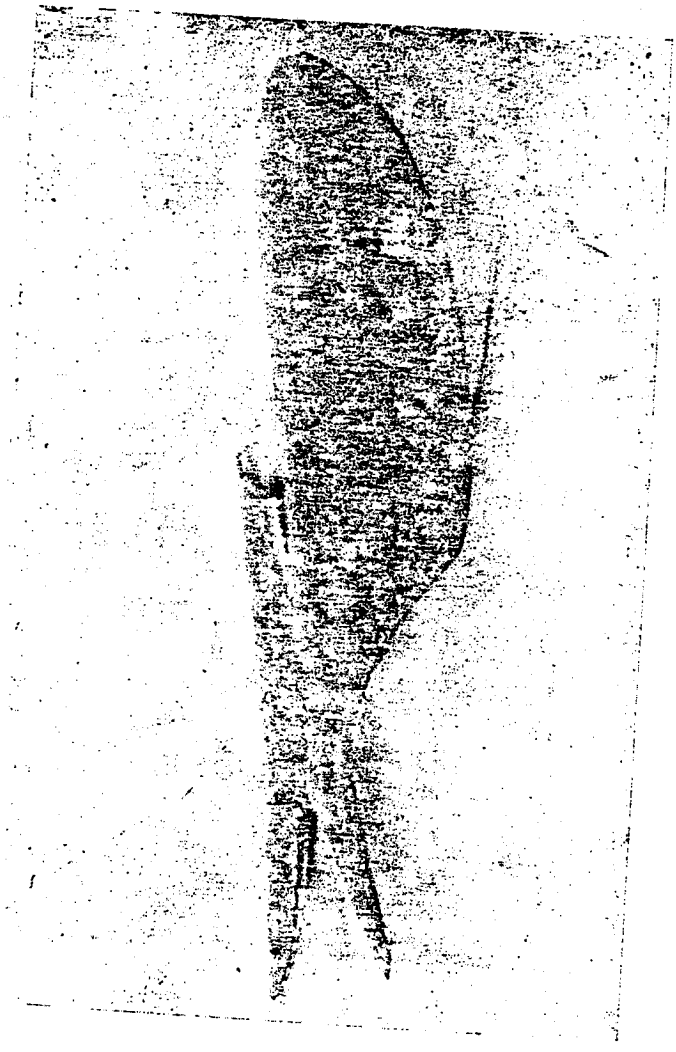

(شكل ١٦)

فلسفتهم فى المرض أن يعالجوه بمجموعة من الطرق هدفها التخلص من سبب المرض أولا ومن نتائجه ثانيا . لقد كانوا يتصورون المرض عاملا خارجيا يتسلل الى الجسم : روح أو غذاء أو سحر . فاذا دخل الجسم سرى فى شرايينه وتحول الى خراج أو ورم أو دود أو مادة مرضية أخرى . اذن كان يتحتم أولا التخلص من الروح أو السحر عن طريق الصلوات والتوسلات والبخور والتمائم والتبرك بالماء المسكوب على التماثيل الشافية (شكل ١٧) ، أو اذا كان السبب المزعوم من محتويات الأمعاء كان التخلص منها عن طريق الملينات ، وخاصة الخروع الذى أفرد له باب مطول فى قرطاسة أبرز . وبعد ذلك كانت تتعين اعادة الأشياء الى أصولها بالعقاقير — حتى ولو كان سبب المرض روحيا .

ولقد شملت العقاقير التى كانوا يستعملونها المواد المعدنية والنباتية والحيوانية . ولقد استعملوا من الأولى : الحجارة الكريمة والذهب والفضة لتركيب الطلاسم ، ومواد كثيرة أخرى لها فوائد أكيدة مثل الشب والجير وكربونات النوشادر وأملاح النحاس والأنتمون والحديد وكربونات الزئبق والنطرون .

ومن النباتات وصفوا مجموعة يزيد عددها على المائتين والخمسين نوعا ، أذكر بعضها مع فوائدها المعروفة :

البابونج والينسون والكمون والنعناع وقشرة الأرمان والتربنتين والزعتر وهى طاردة للأرياح .

العنصل والعرعر مدرين للبول .

القناب الهندى والخشخاش والسكران والفاح واستعملت كمسكنات .

الحنضل والصبر والخروع والتين (ملينة) .

الشمم للعينين .

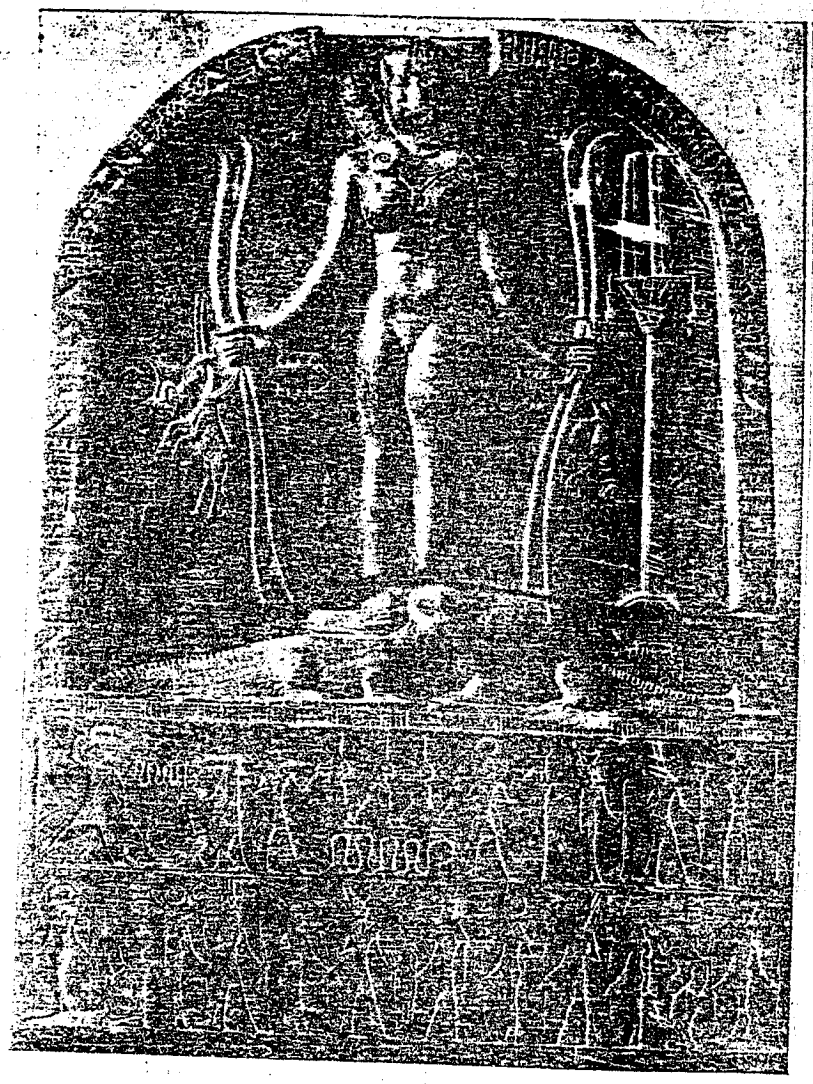

(شكل ١٧)

الحلبة والجنطيان وحب الهان والابسنت هاضمة ومشهية .

الجعة والزيوت والنبيذ والأصماغ : سواغة للعقاقير الفعالة .

البلح والتمر الهندى واللوز والزعفران وعقاقير أخـــرى .

ومن المواد الحيوانية : العسل ولبن البقرة والحمارة والماعـــز والمرأة . ولقد أحلوا فى المرتبة الأولى من الألبان ، لبن المرأة الـــتى أنجبت طفلا ذكرا . وقد تكرر ذكر هذا الدواء فى وصفاتهم حتى أنه ليبـــدو أساسا من أسس علاجهم . وبما أنهم كانوا يعدونه سائلا ثمينا فقد كانـــوا يضعونه فى أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل على ركبتها ولدا هزيـــلا ، يظن بعض العلماء أنه الطفل الهزيل الذى أنجبته ايزيس من زوجهـــا المتوفى أوزيريس .

ومن المواد الحيوانية الأخرى : كبد الحوانات لشفاء عشـــى الليل . ولا شك فى أن كميات فيتامين (أ) التى يحويها الكبد تجعـــله دواء صالحا لشفاء هذا المرض .

غير أن أصنافا كثيرة من تلك التى استعملوها لا تمـــت الى الطب بصلة ، مثل تدليك جانب الرأس برأس سمك مقلو ، وذلك لعـــلاج الصداع الجانبى ينقل الألم من الرأس المصاب الى رأس السمكة . وكذلك علاج العمى بوضع سوائل عين الخنزير فى أذن المريض ... الخ ، ويمكـــن درج تلك العلاجات ضمن العلاجات الشعبية التى مازال الشعـــــب يستعملها ، كعلاج الحصباء بارتداء ثياب حمراء أو اليرقان (الصفـــراء) بمواد صفراء لتشابه الألوان ... الخ .

وهذا يفتح بابا غريبا هو باب العلاجات الوهمية التى تسعـــى الى طرد الشياطين بالمواد المنفرة كالغائط ... الخ . الا أننا نجهـــل حقيقة مدلول أسماء بعض تلك العقاقير ، اننا اليوم مازلنا نسمى بعـــض الأعشاب : كعب العفريت أو فساء الكلاب . فهى نحن نقوم برحـــلات

الى جهنم لنقطع قطعة من كعب ابليس أو نلتقف الريح من خلف الكلاب لنضعها فى اسطوانات محكمة تصرف فى الصيدليات ؟

تخيلوا ! ـ شخصا فى القرن الأربعين يقرأ أننا نأكل (صوابع زينب) أو (سرة الست) أو (عش الغراب) أو (شيخ محشى) أو (عين الجمل) فيتصور أننا نقطع أصابع السيدات ونختطف عش الغربان من بين غصون الأشجار أو نحشى بطون شيوخنا أو ننتزع عيون الجمال لنأكلها ٠

مجال للشك فى أن عددا كبيرا من الأسماء الغريبة للأدوية تدل على غير مدلولها اللفظى ولذا فانه يجب علينا ألا نصدر حكما على فارما كوبيا هذا العصر دون أن نلجأ الى غاية لتحفظ ٠

ولقد استعار الاغريق العقاقير التى استعملها المصريون ٠ فقد نقلها ديوسفوريوس فى كتابه عن المادة الطبية الذى أصبح فيما بعد أساس أقر بازين العرب ثم الغربيين فى عصر النهضة وورثته أقر بازيتا نحن حاليا ٠

ومما يدل أيضا على نقل الاغريق لمفردات المصريين غرابة ما نقلوا ، مثال ذلك لبن المرأة التى أنجبت طفلا ذكرا ووصف شوك القنفذ المحروق لعلاج الصلع ، واستعمال البول فى المراهم والأشربة ، وأكل الفئران المقلوة لشفاء آلام نمو الأسنان ٠

والى ذلك فاننا نجد أنهم نقلوا أيضا أسماء بعض الأدوية بشىء من التحريف فان " سدمت " المصرية تحولت الى " ستيبوم" اللاتينية و " قمت " أصبحت " جومى " شأنها فى هذا الصدد شأن ألفاظ كثيرة غير طبية مثل " هين " التى تحرفت الى " أبنوس " ، و " دجبت " الى " طوب " ... الخ ٠

نجد هذا التسلل نفسه فى اسم (سوسن) الجميل ، ومعناه

زهرة اللوتس وفى أسماء بعض الأعضاء مثل حدقة العين • فان هذا الجزء من العين كان يسمى شابة العين كما سماه الاغريق Xopn (الشابة) واللاتين Pupilla أى البنت القاصر والأسبان Nina de los ojos أى شابة العينين والعرب (انسان العين) ... وكذلك فى أسماء بعض الأمراض مثل (الماء الأبيض) وهو باللاتينى Suffusio أى انسكاب سائل ، وبالانجليزية Cataract أى الشلال وكانوا يسمونه (سعود الماء) .

وقد استعرضنا فى المؤتمر الدولى لتاريخ الطب فى أثينا سنة ١٩٦٠ بعض الظواهر التى تدل على استدانة الاغريق من المصريين .

أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم الحديث وأدخلت عليكم الملل ولعلى نجحت فى تصوير لقطة من طب ذلك العهد .

ومع ذلك فاننا نخطىء اذا ظننا أن هذا الطب كان ثابتا أو مطرد التقدم فقد نشأت الحضارة المصرية والعهد الحجرى ووصلت الى غاية أزدهارها فى العهد الذهبى ، تراوحت بين التقهقر والتقدم تبعا للأزمات السياسية الشديدة التى قابلتها • وما دامت فى مد وجذر طول حياتها • فان أى وصف يضع تلك الحضارة أو طبها فى اطار واحد هو وصف مصطنع مفتعل • اذ شتان بين تفكير معاصرى مينا ورعايا رمسيس ، وبين معارفهم وتحقيقاتهم .

ولكننا نخطىء أيضا اذا تخيلنا أن طب أى حقبة كان حتما متقدما بالنسبة لما سبقه أو أن هذا الطب بدأ بالسحر وانتهى الى العلم كما يبدو بداهة • لقد لاحظ العالم الألمانى جرابو ، فى شىء من الدهشة، أن القراطيس الطبية كانت تزيد واقعيتها كلما زاد قدمها • وبالعكس كانت الشعوذة تكثر كلما اقتربت منا وهذا معناه الأطباء المصريين وصلوا الى ذروة الواقعية العلمية قبل الميلاد بثلاث آلاف من السنين أى فى عهد تشييد الأهرام وأنهم وقعوا فيما بعد فى الخرافات عندما اتصلوا

بجيرانهم وتلوثوا بخرافاتهم وأديانهم ٠

وفوق هذا فان أى حكم نصدره اليوم يشوبه حتما وجه آخر من النقص لافتقارنا الى مصادر كافية للبحث ٠ فاننا نعتمد على تسعة مخطوطات هى كل ما وصلنا عن عهد دام أربعين قرنا ٠ وهذه المخطوطات تختلف قيمتها من واقعية قرطاسة ادوين سميت التى تدعو لدهشتنا واعجابنا الى تحريف البعض الآخر مثل قرطاسة لندن ـ ليدن ٠ ومع ذلك فان أغلب المؤرخين لم يميزوا بينها ، فأخذوا أوهام القراطيس السحرية على أنها النظريات الطبية الرسمية وخلطوا بينها كأن خلفاءنا يحكمون علينا بقراءة مؤلف نسخ من أحدث المؤلفات مخلوطا بكتب الرقى ووصفات (ولاد البلد) وعندى أنه يجب استبعاد المؤلفات الأخيرة من أية دراسة جدية ٠

ولذا فان أى حكم يعد مؤقتا ، قابلا للاستئناف ثم للنقض ٠ فهناك ما اندثر من المخطوطات وما لم يكشف عنه بعد ، وهناك بيوت الحياة التى دمرها الفاتحون والمتعصبون ... وهناك كنوز التعليم السرى فى سراديب المعابد ... وهناك وهناك ...

ومن يدرى : فربما أتاح لنا حسن الطالع أن نشهد يوما كشف مدرسة من مدارس بيوت الحياة أو قرطاسة جديدة تحدث ضجة كالتى أثارتهما قرطاسة أدوين سميث ٠ ومهما يكن من أمر ، فان المصريين اذا كانوا قد نشأوا فى جو من السحر والجهل ، شأنهم فى ذلك شأن كل الشعوب الفتية ، فانهم كانوا أول من حاول عبورا العصر الذى يفصل بين السحر والعلم ، فهيأوا الجو لليونان ومن بعدهم للاسكندرية ولحضارة البحر الأبيض بأكمله ٠

نعم : لولا المصريين لما قدر لهؤلاء الوصول الى ما وصلوا اليه ٠